المحاضرة الثانية : الحتمية العلمية "الأسلوبية "

تهدف هذه المحاضرة إلى تقديم توطئة علمية بخلفية علمية عن تاريخ بداية الأسلوبية، دون الخوض في مضامين علم الأسلوب (الأسلوبية)، ودون الخوض أيضا في تلقفها من لدن النقاد العرب، وتطبيق إجراءاتها وتقنياتها على النصوص العربية.وقد اعتمدنا من أجل ذلك كتاب :ماوراء النص اتجاهات النقد الأدبي الغربي في يومنا هذا للدكتور.ماهر شفيق فريد.

يتفرع علم الأسلوب من اللغويات الحديثة، ويختص بالتحليل المفصل للأسلوب الأدبي، أو ما يختاره المتحدثون والكتاب من أساليب لغوية في سياقات غير أدبية، يقول الشاعر الفرنسي بول فاليري " : إن الأسلوب الأدبي انحراف عن معيار (."واطسون،دراسة الأدب.)

يقول الناقد البريطاني جريام هف (أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة كمبردج، في كتابه " الأسلوب وعلم الأسلوب:" إن علم الأسلوب هو الجسر الواصل بين النقد الأدبي وعلم اللغة .إنه المبحث الذي يدرس ترتيب الكلمات والتكرار والأنساق الإيقاعية والموسيقية والمجاز والرمز والصور والطابع المحلي والمؤثرات المتولدة عن المزج بين معطيات الحواس .وهو إذ يحتفي بالنسيج اللفظي يبدأ من النص الأدبي وليس من الظروف المحيطة به، منطلقه هو كلمات النص وكيف تم الجمع بينها في ترتيب معين يرمي إلى توليد أثر معين .إنه دراسة للمعجم اللفظي وبناء الجمل ونسبة الأسماء بالمقارنة بالنعوت، ونسبة الجمل الاسمية بالمقارنة بالجمل الفعلية أو أشباه الجمل."

ولا يبدو الأمر غريبا عندما نجد بعض الكتاب والمبدعين أقدر على الدرس الأسلوبي من غيرهم، فلكل كاتب خصائصه التي تتجلى في قدرته وطريقته في استعمال الكلمات، لتكون قابلة للتحليل الأسلوبي.

يعد شارل بالي أول من استعمل عبارة" علم الأسلوب"، وهو صاحب الكتابين" :رسالة في علم الأسلوب الفرنسي "الصادر في 1951 و"اللغة والحياة "الصادر أيضا سنة . 1951 ولكنه لم يقصد بعبارة "علم الأسلوب"دراسة الأسلوب الأدبي، وإنما قصد دراسة المؤثرات والآليات التعبيرية في اللغة عموما.
قطع علم الأسلوب شوطا كبيرا نحو الدقة بعد أن كانت الفكرة القديمة هي :إن الأسلوب لباس أو رداء الفكر؛ فالفكرة تطرأ أولا على الذهن ثم يبحث لها الكاتب عن ثوب لفظي.

ومن الكتابات الرائدة في علم الأسلوب، كتاب الناقد الفرنسي" ريمون دي جورمون"، الذي ألف كتاب " مشكلة الأسلوب "عام 1902 ، وقد هاجم في هذا الكتاب الأفكار الآلية عن الأسلوب .وكتاب الناقد الإنجليزي" جون مدلت ون مري "من خلال كتابه، المعنون أيضا ب " مشكلة الأسلوب "الصادر عام 1922،وهو مؤلف يخلو من المنهجية، ولكنه لا يخلو من ملاحظات قيمة.
من الأعمال أيضا" :أسلوب صمويل جونسون النثري "الصادر عام 1941 للناقد الأمريكي " وليم ك.ويمزات.

و"الأداة مفشية السر "الصادر عام 1949 للناقد البريطاني،" السير جورج روستريقور هاملتون"، وهو كتاب يتحدث عن استخدام بعض الشعراء المحدثين، مثل :و.ه.أودن، لأداة التعريف the وهناك كتاب آخر ل " ديفيد لودج "موسوم" لغة القصة "صدر عام 1966 ، وكتاب ل " جيفري ليتش ومايكل شورت " موسوم " الأسلوب في القصة الخيالية "الصادر عام 1981 ، وكتاب ل" مايكل شورت "موسوم "استكشاف لغة القصائد والمسرحيات والنثر "الصادر عام. 1966 ولا شك أن علم الأسلوب مدين للناقد "رومان ياكوبسون) 1982 - 1896 ("، مؤلف " إطار اللغة "عام1980 ، و " الفن اللفظي والعلامة اللفظية والزمن اللفظي "عام 1985 ، و "اللغة في الأدب "عام. 1987 و"ياكبسون "هو باحث روسي المولد، عرف بكتاباته عن " وجهي اللغة"، بمعنى ترتيب العلاقات اللغوية من خلال محور التضام، ومحور الاختيار .وقد كان عالما لغويا وعالم فولكلور وناقدا أدبيا، وخبيرا باللغات السلافية والأساطير، ودارسا للعصور الوسطى، كما إنه ناقد مسرحي وسينمائي.

شكل" ياكبسون "مع ستة دارسين آخرين ما سمي" دائرة موسكو اللغوية "سنة 1915 ، وقد اهتمت هذه المدرسة بدراسة اللغة من حيث هي نظام، رافضة المدخل التاريخي المتعارف عليه، الذي يصرف اهتمامه إلى تتبع تغير اللغة وتطورها.ثم النتقل إلى تشيكوسلوفاكيا في 1920 وحصل على الدكتوراه من جامعة براغ في 1930 ، وأسس مع علماء آخرين " دائرة براغ اللغوية" ، وهي منظمة أخرى عكفت

على دراسات اللغة .وبعد قيام الحرب العالمية في1939 لجأ إلى اسكندنافيا ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1941 ، واشتغل هناك في عدد من جامعاتها.

اهتم" ياكبسون "بدراسة الاستعارة والكناية .وفي مقالته الموسومة " :جانبان من اللغة ونمطان من اضطرابات الحبسة أي تعذر النطق ، ذهب إلى إن اختيار المتكلم للكلمات يتضمن عمليتين :إحداهما هي اختيار الكلمات، والأخرى هي الجمع بينهما لتكوين وحدات أعقد .وعنده :إن الرومانتيكية والرمزية والسريالية أقرب إلى استخدام الاستعارة، بينما الواقعية والتكعيبية أقرب إلى استخدام الكناية .وفي فن السينما تكون بعض التقنيات، مثل اللقطات المكبرة، كنائية، بينما تقنيات أخرى مثل :المونتاج، استعارية.
ومن مقالاته الأخرى المهمة" علم اللغة و البويطيقا"حيث يؤكد وجود صلة وثيقة بين هذين الأمرين،ويرد حديثه عن محور اللاختيار ومحور التضام.

ومن خلال نشاطه في" دائرة موسكو اللغوية "تبادلت هذه الأخيرة الأفكار مع جماعة أخرى مهمة هي" جمعية بتروجراد لدراسة لغة الشعر "المعروفة باسم" أوبوياز "تأسست في 1916 - ومن لقاء هاتين الجماعتين ولدت- الشكلانية الروسية(ينظر لين :خمسون منظّرا أدبيا رئيسيا.)

وفي مقالات من نوع مقالته المسماة" شعر الأجرومية و أجرومية الشعر "أحدث ياكوبسن تقاربا بين التفكيرالأدبي والتفكير الرياضيى، و استخدم تقنيات فكرية من علم الرياضة في مجالات لم يكن لها عهد بهذا العلم من قبل.وظل دائما مهتما بفحص الأوجه" البنائية "للأدب:فهو في الشعر مهتم بنظريات العروض،وفي النثر مهتم بأجناس الحكاية الشعبية التقليدية التي تتسم بوجود توازيات قوية بين الجمل المتتابعة(انظر مقالة سامبسون في كتاب: مفك رو القرن العشرين، تحرير رولاند تيرنر.)

سعى ياكوبسن إلى تفهم" أدبية "الأدب أن يحدد بمصطلحات علم اللغة، ما يجعل من الرسالة اللفظية عملا - فنيا .وتجلى هذا في مقالته المشار إليها سابقا، وهي مقالة" علم اللغة و الب ويطيقا"وقد ألقاها في مؤتمر عن"الأسلوب في الأدب "عقد بجامعة إنديانا الأمريكية في. 1958 وفي 1962 تعاون ياكوبسن مع ليفي ستروس في كتابة تحليل بنيوي لسوناته بودلير المسماة" القطط"،على أن تحليلهما هذا كان موضع نقد من جانب ميشيل ريفاتير في عام(1966 ينظر:لودج و وود(محررين:)النقد الحديث و النظرية .)وقد تناول ياكوبسون وليفي ستروس قصيدة بودلير من حيث شكل المقطوعة ،و نظام القافية ا ولتركيب الصوتي ، و البناء الدلالي.

أما ريفاتير) 2006 - 1924 (فباحث فرنسي سعى إلى معرفة الطريقة التي يتحول بها أي فعل كلامي إلى عمل فني.ومن مؤلفاته:مقالات في علم الأسلوب البنائي) 1971 (،سيميوطيقا الشعر 1978 (.)إنتاج النص (. 1979 (ومن المؤثرات القوية في علم الأسلوب الفقيه اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير(1913 - 1857 (بمحاضراته التي ألقاها في جامعة جنيف في الفترة 1911 - 1906 ثم نشرت عام 1916 بعد موته من واقع ما دونه تلاميذه،تحت عنوان":دروس في اللغويات العامة."
ينبغي أيضا ألا نغفل تأثير اللغوي الأمريكي المعاصر نعوم تشومسكي(ولد في) 1928 - - صاحب "مدخل تحويلي إلى علم التراكيب) 1958 ("،"قضايا راهنة في نظرية علم اللغة) 1964 ("،"أوجه نظرية في علم التراكيب 1965 "،"موضوعات في نظرية النحو التوليدي) 1966 ("،"اللغة والعقل (") 1968،"دراسات عن علم الدلالة في النحو التوليدي) 1972 ("،"معرفة اللغة:طبيعتها وأصلها واستخدامها) 1985 ("وغير ذلك من الأعمال التأسيسية.

ومن المفاهيم التي أذاعها تشومسكي مفهوم" البناء العميق: "وهو بناء المعنى الكامن في أي قول،بوصفه متميزا عن ترتيب الكلمات الممكن ملاحظته(البناء السطحي)والذي يقدم به. وهذا التمييز بين البناء العميق والبناء السطحي من المبادئ الأساسية في ثورة الأجرومية التي قادها تشومسكي في ستينيات القرن الماضي،وقد تابعه فيها بعض الباحثين في علم السرد. وعند تشومسكي أن البناء العميق للجملة هو محتواها السيمانطيقي(الدلالي أو المعنوي نسبة إلى المعنى)،وهو تجريد مستخلص من التتابع التراكيبي لوحدات بنائها السطحي. وعلى هذا فإن جملة - قتل الملاح طائر القطرس "،كما في قصيدة كولردج(:الملاح الهرم)تختلف من حيث البناء السطحي عن جملة قتل القطرس على يد الملاح(الجملة الأولى مبنية للمعلوم،والجملة الثانية مبنية للمجهول) ولكن الجملتين تشتركان في نفس البناء العميق (انظر بالديك:معجم أوكسفورد الوجيز للمصطلحات الأدبية.)

إن من شأن علم الأسلوب أن يوقفنا على الخصائص اللغوية التي يتميز بها كل كاتب:صخب رابليه بل عربدته اللفظية،إكثار الدكتور صمويل جونسون من استخدام المقابلة أو الطباق،البرودة الرخامية الكلاسيكية للغة الأديب الإنجليزي ولتر سافيدج لاندور(في القرن التاسع عشر)وهي برودة ربما كانت تخفي وراءها طبعا ناريا مشبوبا،وكلاسيكية تخفي وراءها رومانتيكية مكبوتة، وكأنما يتخذ من هذا المظهر الساكن آلية دفاعية،شعورية أو لاشعورية،يذود بها عن تأجج عواطفه.

وبالعودة إلى كتاب ج يرام هف" الأسلوب وعلم الأسلوب "نجده يتحدث عن عدد من أعلام هذا المبحث نذكر منهم:

ليوسبيتزر(1960 - 1887 (فقيه لغوي نمساوي المولد،أمريكي الجنسية،تخصص في اللغات المتفرعة عن اللاتينية وقد درسها في ألمانيا قبل ظهور النازية.وهو من أبرز ممارسي النقد الأسلوبي.من مؤلفاته":اللغويات وتاريخ الأدب:مقالات في علم الأسلوب.) 1948 "كتب عن بلزاك،وهنري باربوس،وماري دي فرانس،والأدب الفرنسي في القرن السابع عشر. وطبق منهج شرح النصوص الفرنسي على قصيدة الشاعر الأمريكي" ولت ويتمان" "من قلب المهد المتأرجح إلى غير نهاية. "ومن أقواله" :إن الفكرة والكلمة،في كل لحظة من القراءة،تريان معا."

(ينظر جرين في كتاب:مفكرو القرن العشرين،تحرير رولاند تيرنر)

ولسبيتزر دراسة لامعة عن أسلوب الأديب الفرنسي ديدرو(من القرن الثامن عشر)ركز فيها على إيقاع نثره اللاهث الذي يكاد يحاكي إيقاع الفعل الجنسي.كما كتب عن ديوان بول كلوديل" خمس أناشيد كبرى "وتمكن من أن يحلل بناء هذه القصيدة الرابسودية التي تبدو لأول وهلة عصية على التحليل.

إريك أويرباخ(1957 - 1892 (فقيه لغوي وناقد ألماني، كان يتحرك بطلاقة بين اللغات الإيطالية والفرنسية واللاتينية.اشتهر بكتابه المسمى"المحاكاة :تمثيل الواقع في الأدب الغربي) 1946 ("وقد ألفه أثناء إقامته في تركيا، حين كان يعمل أستاذا بالجامعة التركية في إسطنبول .) 1947 - 1936 (وهو في هذا الكتاب المهم يعالج الطرق المختلفة التي صور بها الإنسان الغربي خبراته الفعلية تاريخية واجتماعية وأخلاقية ومعنوية ودينية في أشكال أدبية .كتب عن":أوديسية "هوميروس، والكتاب المقدس،وكوميديا دانتي الإلهية، ورابليه، وسرفنتس، ومونتين، وسان سيمون،وفلوبير، وستندال، وبلزاك، والأخوين جونكور، وفرجينياولف.كما ناقش أساليب بترونيوس، مؤلف"ساتيريكون "والمؤرخ اللاتيني تاكيتوس وغيرهم.

أما عن علم الأسلوب في النقد العربي الحديث، فإن للدكتور شكري عياد ثلاثية سعى من خلالها إلى إقامة علم أسلوب عربي، وهو مجهود معتبر، أخرج في إطاره" :دائرة الإبداع :مقدمة في أصول النقد " و"مدخل إلى علم الأسلوب) 1982 ("،و"اللغة والإبداع :مبادئ علم الأسلوب العربي .) 1988 ("وفي هذه الكتب عالج قضايا جوهرية من قبيل :النقد الأدبي بين العلم والفن، والتذوق والتفسير، واللحظة الجمالية، ونظرية الأسلوب(مع تطبيقات على قصائد لإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي.)والنقلة من علم البلاغة إلى علم الأسلوب، والأسلوب واللغة، والظاهرة الأسلوبية، وثوابت الأسلوب في اللغة العربية،واللغة والأسلوب الشخصي.